# القيامة الجنة والنار

# □ يوم القيامة □

هذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه ، القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كوّرت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت . قد وصف الله بعض دواهيها ، وأكثر من أساميها ؛ لتقف على كثرة معانيها[1].

توضع الموازين ، وتنشر الدواوين ، بُرزت الجحيم ، وأُغلي الحميم ، وزفرت النار ، ويئس الكفار ، وسعرت النيران ، وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ، ونطقت جوارح الإنسان .

فيأيها الإنسان ، ما غرّك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب ، وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق ، فقارفت الفجور ، وظننت أن يوم الفصل بعيد ، وأن الجزاء ليس من جنس العمل ، وربك يا غافل ليس بظلام للعبيد .

قال تعالى : **﴿ ومن يهدِ الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميًا وبكمًا وصمًّا مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرًا ﴾** [الإسراء : ٩٧] .

قال ابن كثير :

وقوله : **﴿عميًا﴾** أي لا يبصرون. **﴿وبكمًا﴾** يعني لا ينطقون. **﴿وصمًّا﴾** لا يسمعون . وهذا يكون في حال دون حال ، جزاء لهم ، كما كانوا في الدنيا بكمًا وعميًا وصمًّا عن الحق فجوزوا في محشرهم بذلك ، أحوج ما يحتاجون إليه[2].

---

(١) إحياء علوم الدين ( ٥٤٩/٤ ) .

(٢) تفسير ابن كثير ( ١٢٠/٥ - ١٢١ ) .

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

وهذا جزاء مناسب للجرم؛ لأنهم روجوا الضلالة في صورة الحق، ووسموا الحق بسمات الضلال، فكان جزاؤهم أن حُوّلت وجوههم أعضاء مشي، عوضًا عن الأرجل.

ثم كانوا ﴿**عميًا وبكمًا**﴾ جزاء أقوالهم الباطلة على الرسول وعلى القرآن.

﴿ **وصمًا** ﴾ جزاء امتناعهم عن سماع الحق ، كما قال تعالى : ﴿ **وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب** ﴾ [فصلت : ٥] ، وقال عنهم : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه : ١٢٦] وقال عنهم: ﴿**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى**﴾ [الإسراء : ٧٢] ؛ أي من كان أعمى عن الحق فهو في الحشر يكون محرومًا من متعة النظر ، وهذه حالتهم عند الحشر(١).

قال تعالى : ﴿ **ومن أعرض عن ذِكْري فإن له معيشة ضَنْكًا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ [طه :١٢٤- ١٢٦].

قال ابن كثير :

يقول : ﴿ **رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا** ﴾ ؟ أي : في الدنيا ، ﴿ **قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ ؛ أي لما أعرضت عن آيات الله ، وعاملتها معاملة من لم يذكرها ، بعد بلاغها إليك ، تناسيتها وأعرضت عنها وأغفلتها ، كذلك نعاملك معاملة من ينساك ﴿ **فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا** ﴾(٢).

فإن الجزاء من جنس العمل .

قال ابن جرير :

قال الله حينئذٍ للقائل له : ﴿ **لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا** ﴾ :

---

(١) التحرير والتنوير ( ١٥/٢١٧ ) .

(٢) تفسير ابن كثير ( ٥/٣١٧ ) .

فعلتُ ذلك بك ، فحشرتك أعمى ، كما أتتك آياتي ، وهي حججه وأدلته ، وبيانه الذي بيّنه في كتابه ، ﴿ **فنسيتها** ﴾ يقول : فتركتها وأعرضت عنها ، فكذلك اليوم ننساك فتتركك في النار[١].

قال ابن القيم :

﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾ هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمي البصر ، وأنه جوزي من جنس عمله ، فإنه لما أعرض عن الذكر الذي بعث الله به رسوله ، وعميت عنه بصيرته ؛ أعمى الله بصره يوم القيامة ، وتركه في العذاب ، كما ترك هو الذكر في الدنيا ، فجازاه على عمى بصيرته ، عمى بصره في الآخرة ، وعلى تركه ذكره . تركه في العذاب[٢].

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

والإشارة في ﴿ **كذلك أتتك آياتنا** ﴾ راجعة إلى العمى المضمن في قوله : ﴿ **لم حشرتني أعمى** ﴾ ؛ أي مثل ذلك الحال التي تساءلت عن سببها ، كنت نسيت آياتنا حين أتتك ، وكنت تعرض عن النظر في الآيات حين تُدعى إليه ، فكذلك الحال كان عقابك عليه جزاءً وفاقًا[٣].

قال سيد قطب :

﴿ **ونحشره يوم القيامة أعمى** ﴾ وذلك ضلال من نوع ضلالته في الدنيا ، وذلك جزاء على إعراضه عن الذكر في الأولى ، حتى إذا سأل : ﴿ **رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا** ﴾ ؟ كان الجواب : ﴿ **كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى** ﴾.

ولقد أسرف من أعرض عن ذكر ربه ، أسرف فألقى بالهدى من بين يديه ، وهو أنفسُ شراء وذخر ، وأسرف في إنفاق بصره في غير ما خلق له ؛

---

(١) تفسير الطبري ( ٢٣١/٨ ) .

(٢) مفتاح دار السعادة ( ٤٥/١ ) التفسير القيم ص٣٦١ .

(٣) التحرير والتنوير ( ٣٣٢/١٦ ) .

فلم يبصر من آيات الله شيئًا ، فلا جرم يعيش معيشة ضنكًا ويحشر في يوم القيامة أعمى[(١)].

قال القشيري :

من كان بحالة لقي الله بها ، فمن كان في الدنيا أعمى القلب ، يحشر على حالته ، ومن يعش على جهل يحشر على جهل ، ولذا يقولون : ﴿ **مَنْ بعثنا من مرقدنا** ﴾ [يس : ٥٢] إلى أن تصير معارفهم ضرورية ، وكما يتركون اليوم النذير في آياته، يُتركون غدًا في العقوبة من غير رحمة على ضعف حالاتهم»[(٢)].

جرت سنته بأن يجازي كلًّا بما يليق بحاله ، فما أسلفه لنفسه سيلقى غبَّه على الخير خيرًا ، وعلى الشر شرًّا .

قال تعالى : ﴿ **يوم يُكشف عن ساقٍ ويدعَون إلى السجود فلا يستطيعون خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون** ﴾ [القلم : ٤٢-٤٣] .

قال ابن كثير :

﴿ **خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة** ﴾ أي في الدار الآخرة ، بإجرامهم وتكبرهم في الدنيا ، فعوقبوا بنقيض ما كانوا عليه ، ولما دعوا إلى السجود في الدنيا فامتنعوا منه ، مع صحتهم وسلامتهم ، كذلك عوقبوا بعدم قدرتهم عليه في الآخرة إذا تجلى الرب عز وجل فيسجد له المؤمنون ، ولا يستطيع أحد من الكافرين ولا المنافقين أن يسجد ، بل يعود ظهر أحدهم طبقًا واحدًا كلما أراد أحدهم أن يسجد خرّ لقفاه عكس السجود ، كما كانوا في الدنيا بخلاف ما عليه المؤمنون[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ : « يُحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر ، في صور الرجال ، يغشاهم الذل في كل مكان ، يساقون إلى سجن في جهنم يسمى بُولُس ،

---

(١) الظلال ( ٤/٢٣٥٥-٢٣٥٦ ) . (٢) لطائف الإشارات ( ٢/٤٨٦ ) .
(٣) تفسير ابن كثير ( ٤/ ) .

تعلوهم نار الأنيار ، يُسقون من عصارة أهل النار ، طينة الخبال »[١].

قال رسول الله ﷺ : « أَخْنَعُ الأسماءِ عند الله يوم القيامة رجل تَسمَّى ملك الأملاك لا مالك إلا الله »[٢].

قال المناوي :

« أخنع » أي : أفحش .

«الأسماء» أي: أقتلها لصاحبه، وأهلكها له؛ يعني أدخلها في الخنوع؛ وهو الذل والضعة والهوان .

« عند الله يوم القيامة » قيّد به مع كونه في الدنيا كذلك ؛ إشعارًا بترتب ما هو سبب عنه من إنزال الهوان وحلول العذاب .

« رجل » أي : اسم رجل ، وقال القرطبي : المراد بالاسم المسمى .

« تسمى » أي : سمى نفسه ، أو سماه غيره فأقره ورضي به .

« ملك الأملاك » أو ما في معناه ، نحو شاهٍ شاهان ، أو شاهان شاه .

وقال القرطبي : وحاصل الحديث أن من تسمى بهذا الاسم انتهى من الكبر إلى الغاية التي لا تنبغي لمخلوق ، وأنه قد تعاطى ما هو خاص بالإله الحق ، لما ثبت في الفطرة أنه « لا مالك » لجميع الخلائق .

« إلا الله » ، فلا يصدق هذا الاسم بالحقيقة إلا عليه سبحانه وتعالى ، فعوقب على ذلك من الإذلال والاسترذال بما لم يعاقب به مخلوق .

وقال الطيبي : فمن تسمى بذلك نازع الله سبحانه وتعالى في رداء كبريائه ، واستنكف أن يكون عبده ؛ لأن وصف المالكية مختص بالله لا يُتجاوز ، والمملوكية بالعبد لا تتجاوزه ، فمن تعدى طوره فله في الدنيا الخزي والعار ، وفي الآخرة الإلقاء في النار[٣].

---

(١) حسن : رواه أحمد في مسنده ، والترمذي عن ابن عمرو ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع ، رقم ٧٨٩٦ .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة .

(٣) فيض القدير ( ١/٢٢٠-٢٢١ ) .

**وعيدُ منكري الرؤية :**

قال تعالى : ﴿ **كلَّا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون** ﴾ [المطففين : ١٥] .

قال ابن القيم بعد ذكر هذه الآية :

قد تقدم قوله تعالى : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم لمحجوبون** ﴾ ، وقول عبد الله ابن المبارك : ما حَجَب الله عنه أحدًا إلا عذّبه ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **ثم إنهم لصالوا الجحيم ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون** ﴾ [المطففين : ١٦-١٧] قال : بالرؤية . وروى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة قال : قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هل تضارُّون في رؤية الشمس في الظهيرة ، ليست فيها سحابة ؟ » قالوا : لا ، قال : « هل تُضَارّون في رؤية القمر ليلة البدر ، ليس فيه سحابة ؟ » قالوا : لا ، قال : « فوالذي نفس محمد بيده ، لا تضارون في رؤية ربكم إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . فيلقى العبدَ فيقول : أي قُلْ، ألم أكرمْك، وأسوِّدك، وأزوّجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأُذرك ترأس وترفع ؟ فيقول : بلى ، أي ربي . فيقول : أفظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول لا . فيقول : أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثاني فيقول : أي قل ، ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وترفع ؟ فيقول : بلى ، أي ربي ، فيقول : أفظننت أنك ملاقي ؟ فيقول : لا . فيقول : إني أنساك كما نسيتني . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك ، فيقول : يا ربِّ ، آمنت بك وبكتبك ورسلك ، وصليت وصمت وتصدقت ، ويثني بخير ما استطاع . فيقول : ههنا إذًا ، ثم يقال له : الآن نبعث شاهدًا عليك ، فيتفكر في نفسه : مَنْ الذي يشهد عليّ ؟ فيختم على فيه ، ويقال لفخذه : انطقي ، فينطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله ، وذلك ليعذر من نفسه ، وذلك المنافق ، وذلك الذي يسخط الله عليه » .

فاجمعْ بين قوله : « إنكم سترون ربكم » وقوله لمن ظن أنه غير ملاقيه : « فإني أنساك كما نسيتني » . وإجماع أهل اللغة على أن اللقاء المعاينة بالأبصار ، يحصل لك العلم بأن منكري الرؤية أحق بهذا الوعيد .

ومن تراجم أهل السنة على هذا الحديث : بابٌ في الوعيد لمنكري الرؤيه ،

كما فعل شيخ الإسلام وغيره ، وبالله التوفيق[1].

فمن أنكر الرؤيه لا يرى ربه جزاءً وفاقًا ، والجزاء من جنس القول والعمل .

**أفسحر هذا ؟ :**

قال تعالى : ﴿ **أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ [الطور : ١٥- ١٦] .

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور :

تنبيه المخاطبين على فساد رأيهم ، إذ كذبوا بالحشر والعقاب ، فرأوا ذلك عيانًا .

وفرع على هذا التنبيه تنبيه آخر على ضلالهم في الدنيا بقوله : ﴿ **أفسحر هذا** ﴾ ، إذا كانوا حين يسمعون الإنذار بيوم البعث والجزاء يقولون : هذا سحر ، وإذا عرض عليهم القرآن قالوا : قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فللمناسبة بين ما في صلة الموصول من معنى التوقيف على خطئهم ، وبين التهكم عليهم بما كانوا يقولونه ، دخلت فاء التفريع ، وهو من جملة ما يقال لهم المحكي بالقول المقدر : تجزون مثل عملكم لا أكثر منه ، فينتفي الظلم عن مقدار الجزاء ، كما انتفى الظلم عن أصله ، ولهذه الخصوصية لم يعلق معمول الفعل بالباء ، إذ جعل الجزاء بمنزلة نفس الفعل[2].

قال الشيخ سيد قطب عن الكافرين :

حتى إذا وصل بهم الدفع والدع إلى حافة النار قيل لهم : ﴿ **هذه النار التي كنتم بها تكذبون** ﴾ [الطور : ١٤] .

وبينما هم في هذا الكرب ، بين الدّع والنار التي تواجههم على غير إرادة منهم ، يجيئهم الترذيل والتأنيب ، والتلميح إلى ما سبق منهم من التكذيب ﴿**أفسحر**

---

(١) حادي الأرواح ص٣٤١-٣٤٢ .

(٢) التحرير والتنوير ( ١٧/٤٣-٤٥ ) .

**هذا أم أنتم لا تبصرون** ﴾ ؟ فقد كانوا يقولون عن القرآن : إنه سحر . فهل هذه النار التي يرونها كذلك سحر ؟! أم إنه الحق الهائل الرعيب ؟! أم إنهم لا يبصرون هذه النار ، كما كانوا لا يبصرون الحق في القرآن الكريم ؟! وحين ينتهي هذا التأنيب الساخر المرير يعاجلهم بالتيئيس البئيس : ﴿ **اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ وليس أقسى على منكوب بمثل هذه النكبة ، من أن يعلم أن الصبر وعدم الصبر سواء . فالعذاب واقع ، ما له من دافع . وألمه واحد مع الصبر ومع الجزع . والبقاء فيه مقرر ، سواء صبر عليه أم هلع ، والعلة أنه جزاء على ما كان من عمل . فهو جزاء له سببه الواقع ، فلا تغيير فيه ولا تبديل[1].

**النـــار :**

تأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا ، فبينما هم في كربها وأهوالها وقوفًا ، ينتظرون حقيقة أنبائها ، وتشفيع شفعائها ، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب ، وسمعوا لها زفيرًا وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب ، وجثت الأمم على الركب ، حتى أشفق البُرآء من سوء المنقلب . وخرج المنادي من الزبانية قائلًا : أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدنيا بطول الأمل ، المضيع عمره في سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع حديد ، ويستقبلونه بعظائم التهديد ، ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ، ويقولون له : ﴿ **ذق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾ [الدخان : ٤٩] فأسكنوه دارًا ضيقة الأرجاء ، مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ، ويوقد فيها السعير ، شرابهم فيها الحميم ، ومستقرهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم ، والهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها الهلاك ، وما لهم منها فكاك ، قد شُدّت أقدامهم إلى النواصي ، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك ،

---

(١) الظلال ( ٣٣٩٦/٦ ) .

قد حق علينا الوعيد . يا مالك ، قد أثقلنا الحديد ، يا مالك ، قد نضجت منا الجلود ، يا مالك ، أخرجنا منها فإنا لا نعود ، فتقول الزبانية : هيهات لات حين أمان ! ولا خروج لكم من دار الهوان . لا ينجيهم الندم ، ولا يغنيهم الأسف فهم غرقى في النار ، طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران ، وسرابيل القطران ، وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون في مضائقها ، ويتحطمون في دركاتها ، ويضطربون بين غواشيها ، تغلي بهم النار كغلي القدور ، ويهتفون بالويل والعويل ، ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما في بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد ، تهشم بها جباههم، فيتفجر الصديد من أفواههم ، وتنقطع من العطش أكبادهم ، وتسيل على الخدود أحداقهم ، كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودًا غيرها، كسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، أعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، غُلَّت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم ، وهم يمشون على النار بوجوههم ، ويطأون حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيبٌ سار في بواطن أجزائهم ، وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم . هذا بعض جملة أحوالهم(١).

فالعجب منك حين تضحك ولست تدري بما سبق القضاء في حقك ، وإلى أي الدارين موردك ، فاعرض نفسك على الآيتين تعرف مستقرك من الدارين : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم** ﴾ [الانفطار : ١٣- ١٤] .

قال تعالى : ﴿ **لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواشٍ وكذلك نجزي الظالمين** ﴾ [الأعراف : ٤١].

قال ابن جرير :

يقول جلّ ثناؤه: لهؤلاء الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ﴿**من جهنم مهاد**﴾ وهو ما امتهدوه مما يقعد عليه ويضطجع كالفراش الذي يُفرش ، والبساط الذي يُبسط . ﴿ **ومن فوقهم غواش** ﴾ وهو جمع غاشية ، وذلك ما غشاهم فغطاهم من فوقهم .

---

(١) إحياء علوم الدين ( ٤/٥٦٣-٥٦٤ ) .

وإنما معنى الكلام : لهم من جهنم مهاد ، من تحتهم فُرُش ، ومن فوقهم منها لُحُف ، وإنهم بين ذلك[(١)].

قال القشيري :

كما أحاطت العقوبات بهم في الدنيا ، فتدنَّسَ بالغفلة باطنهم ، وتلوث بالزّلة ظاهرهم ، فكذلك أحاطت العقوبات بجوانبهم ، فمن فوقهم عذاب ، ومن تحتهم عذاب ، وكذلك من جوانبهم ، في القلب من ضيق العيش ، واستيلاء الوحشة ما يفي ويزيد على الكل[(٢)].

قال تعالى : ﴿ **وبينهما حجاب** ﴾ [الأعراف : ٤٦] .

قال ابن كثير :

قال ابن جرير : وهو السور الذي قال الله تعالى : ﴿ **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** ﴾ [الحديد : ١٣] ، وهو الأعراف الذي قال الله تعالى : ﴿ **وعلى الأعراف رجال** ﴾[(٣)].

قال القشيري :

ذلك الحجاب الذي بينهما حصل من الحجاب السابق ، لمَّا حُجبوا في الابتداء في سابق القسمة عما خُصّ به المؤمنون من الزلفة والقربة ؛ حُجبوا في الانتهاء عما خُصّ به السعداء من المغفرة والرحمة .

ويقال : حجاب ، وأيّ حجاب ! لا يُرفع بحيلة ، ولا تنفع معه وسيلة ، حجاب سبق به الحكم ، قبل الطاعة والجُرم[(٤)].

قال تعالى : ﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعًا من الليل مظلمًا أولئك أصحاب النار هم في خالدون** ﴾ [يونس : ٢٧].

---

(١) تفسير ابن جرير ( ١٨٢/٥ ) .

(٢) لطائف الإشارات ( ٥٣٤/١ ) .

(٣) تفسير ابن كثير ( ٤١٣/٣ ) .

(٤) لطائف الإشارات ( ٥٣٦/١ ) .

قال ابن جرير :

يقول تعالى ذكره : ﴿ **والذين كسبوا السيئات** ﴾ في الدنيا ، فعصوا الله فيها ، وكفروا به وبرسوله ، ﴿ **جزاء سيئة** ﴾ من عمله السيىء الذي عمله في الدنيا ﴿ **بمثلها** ﴾ من عقاب الله في الآخرة[١].

قال ابن كثير :

لما أخبر الله تعالى عن حال السعداء الذين يضاعف لهم الحسنات ، ويزدادون على ذلك ، عَطَف بذكر حال الأشقياء ، فذكر عدله تعالى فيهم ، وأنه يجازيهم على السيئة بمثلها ، لا يزيدهم على ذلك[٢].

قال القرطبي :

ومعنى هذه المثلية أن ذلك الجزاء مما يعد مماثلًا لذنوبهم ؛ أي غير مظلومين ، وفعل الرب غير معلّل بعلة[٣].

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ **والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها** ﴾ جزاءً وفاقًا ، لا يزدادون على ما يستحقون بسيئاتهم من العذاب شيئًا[٤].

قال الشيخ سيد قطب :

﴿ **والذين كسبوا السيئات** ﴾ فكانت هي الربح الذي خرجوا به من صفقة الحياة ! هؤلاء ينالهم عدل الله ، فلا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزداد عليهم السوء ، ولكن ﴿ **جزاء سيئة بمثله** ﴾[٥].

قال القشيري :

والذين كسبوا السيئات ، وعملوا الزلّات ، لهم جزاء سيئة مثلها ، والباء

---

(١) تفسير الطبري ( ١٠٩/٦ ) .

(٢) تفسير ابن كثير ( ٢٠٠/٤ ) .

(٣) تفسير القرطبي ( ٣١٧١/٥ ) .

(٤) تفسير المنار ( ٣٥١/١١ ) .

(٥) تفسير الظلال ( ١٧٧٩/٣ ) .

في ﴿ بمثلها ﴾ صلة ؛ أي للواحد واحد . سيمُوا ذل الحجاب ، ومُنوا بتأبيد العذاب، وأصابهم هوان البعاد، وآثار الحجاب على وجوههم لائحة، فإن الأسرة تدل على السريرة(١).

قال تعالى : **﴿ إن جهنم كانت مرصادًا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابًا لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا إلا حميمًا وغساقًا جزاءً وفاقًا ﴾** [النبأ : ٢١-٢٦].

قال ابن كثير :

وقوله تعالى: **﴿جزاءً وفاقًا﴾** أي هذا الذي صاروا إليه من هذه العقوبة، وفق أعمالهم الفاسدة التي كانوا يعملونها في الدنيا . قاله مجاهد وقتادة وغير واحد(٢).

قال الشيخ محمد الطاهر عاشور :

**﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابًا وكذبوا بآياتنا كذابا ﴾** [النبأ : ٢٧- ٢٨]

فإن ذلك أصل إصرارهم على الكفر ، وهما أصلان :

أحدهما : عَدَميّ ، وهو إنكار البعث .

والآخر : وجودي ، وهو نسبتهم الرسول ﷺ والقرآن للكذب .

فعوقبوا على الأصل العدمي بعقاب عدمي ، وهو حرمانهم من البرد والشراب . وعلى الأصل الوجودي بجزاء وجودي ، وهو الحميم يراق على أجسادهم ، والغساق يمر على جراحهم(٣).

قال سيد قطب :

**﴿ جزاء وفاقًا ﴾** يوافق ما أسلفوا وما قدموا(٤).

وقال تعالى عن أصحاب الشمال : **﴿ في سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم إنهم كانوا قبل ذلك مُترفين ﴾** [الواقعة : ٤٢- ٤٥] .

---

(١) لطائف الإشارات ( ٩٢/٢ ) .

(٢) تفسير ابن كثير ( ٤٦٥/٤ ) .

(٣) التحرير والتنوير ( ٣٨/٣٠ ) .

(٤) الظلال ( ٦/٨-٣٨ ) .

قال البقاعي :

كانوا في الدنيا في سعة من العيش ، منهمكين في الشهوات ، مستمتعين بها ، متمكنين منها ، لترامي طباعهم إليها ، فأعقبهم ما في جبلاتهم من الإخلاد إلى الترف عدم الاعتبار والاتعاظ في الدنيا ، والتكبر على الدعاة إلى الله ، وفي الآخرة شدة الألم ، لرقة أجسامهم المهيئة للترف بتعودها بالراحة ؛ بإخلادها إليها وتعويلها عليها[1] .

فجازاهم بطعام كانت تأنف منه البهائم في دار الدنيا ، وهو الزقوم ؛ الشجرة المنتنة البشعة المنظر ، يملئون منه البطون ، يشربون عليه من الحميم ، الذي ضوعف إحماؤه ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نزلهم يوم الدين ، جزاءً وفاقًا .

**الجنــة :**

لمّا علم الموفَّقون ما خُلقوا له ، وما أريد بإيجادهم ، فإذا عَلَمُ الجنة قد رُفع لهم ، فشمَّروا إليه ، وإذا صراطها المستقيم قد وضح ، فاستقاموا عليه ؛ علموا أن الربح ، كل الربح ، إذا حُشروا إلى الرحمن وفدًا ، والخسران كل الخسران إذا سيقوا إلى جهنم وردًا؛ فأوقفوا اللحظات والسكنات، ووجيب القلوب والأنفاس على الجنة حتى نالوها .

فهم في روضات الجنة يتقلبون ، وعلى أسرتها تحت الحِجَال يجلسون ، وعلى الفرش التي بطائنها من إستبرق يتكئون ، وبالحور العين يتنعمون ، وبأنواع الثمار يتفكهون ، ويطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريق وكأس من معين ، لا يصدعون عنها ولا ينزفون ، وفاكهة مما يتخيرون ، ولحم طير مما يشتهون ، وحور عين ، كأمثال اللؤلؤ المكنون ، جزاءً بما كانوا يعملون[2].

ينظرون إلى وجه الملك الكريم ، وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم ،

---

(١) نظم الدرر ( ٢١٣/١٩ ) .

(٢) حادي الأرواح ص٧ .

لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون ، وبأنواع التحف من ربهم يتعاهدون ، لا يخافون ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون .

فياعجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها ، ويتهنأ بعيش دونها .

تالله لقد نودي عليها في سوق الكساد ، فما قلّب ولا استَامَ إلا أفرادٌ من العباد ، فواعجبا لها . كيف نام طالبها ؟ وكيف لم يسمح بمهرها خاطبها ؟ وكيف طاب العيش في هذه الدار بعد سماع أخبارها ؟ وكيف قر للمشتاق القرار دون معانقة أبكارها ؟ وكيف قرّت دونها أعين المشتاقين ؟ وكيف صبرت عنها أنفس الموقنين ؟ وكيف صدفت عنها قلوب أكثر العالمين ؟ وبأي شيء تعوضت عنها نفوس المعرضين(١).

والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان ، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان ، لكان جديرًا بأن يهجر الدنيا بسببها ، وألا يؤثر عليها الحظ الفاني الخسيس ، ولا يبيع جنة عرضها الأرض والسموات بسجن ضيق بين أرباب العاهات والبليات . ولذة النظر إلى وجه العزيز الرحيم ، بالتمتع برؤية الوجه القبيح الذميم . وسماع الخطاب من الرحمن ، بسماع المعازف والألحان . والجلوس على منابر اللؤلؤ والزبرجد في يوم المزيد ، بالجلوس في مجالس الفسوق مع كل شيطان مريد .

يقول يحيى بن معاذ : تَرْك الدنيا شديد ، وفوت الجنة أشد ، وترك الدنيا مهر الآخرة .

وقال: في طلب الدنيا ذل النفوس ، وفي طلب الآخرة عز النفوس ، فياعجبا لمن يختار المذلة في طلب ما يفنى ، ويترك العز في طلب ما يبقى(٢).

قال تعالى : **﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾** [يونس : ٢٦] .

---

(١) حادي الأرواح ص٧ .

(٢) إحياء علوم الدين ( ٤/٥٧٧ ) .

قال ابن كثير :

يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا ، بالإيمان والعمل الصالح ، أبدله الحسنى في الدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿**هل جزاء الإحسان إلا الإحسان**﴾(١) [الرحمن : ٦٠] .

قال ابن جرير :

ثم اختلف أهل التأويل في معنى الحسنى والزيادة ، اللتين وعدهما المحسنين من خلقه ، فقال بعضهم : الحسنى هي الجنة ، جعلها الله للمحسنين من خلقه جزاء . والزيادة عليها : النظر إلى الله تعالى(٢).

قال الرازي :

وقال صاحب الكشاف : المراد : المثوبة الحسنى ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾(٣).

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ هذا بيان لصفة الذين هداهم إلى صراط الإسلام ، فوصلوا بالسَّيْر عليه إلى غايته ، وهي دار السلام ؛ أي للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى ؛ أي التي تزيد في الحسن على إحسانهم(٤).

قال سيد قطب :

فأما الذين أحسنوا ؛ أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم ، وإدراك القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام ، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة(٥).

---

(١) تفسير ابن كثير ( ١٩٨/٤ ) .
(٢) تفسير الطبري ( ١٠٤/٦ ) .
(٣) تفسير مفاتيح الغيب ( ٣٣٨/٨ ) .
(٤) تفسير المنار ( ٣٥٠/١١ ) .
(٥) الظلال ( ١٧٧٩/٣ ) .

**المقربون من أهل الجنة :**

بعد أن ذكر الله جزاءهم في سورة الواقعة قال تعالى : ﴿ **جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ [الواقعة : ٢٤] .

قال الإمام البقاعي في كتابه نظم الدرر :

لما أبلغ في وصف جزائهم بالحسن والصفاء ، دلّ على أن أعمالهم كانت كذلك ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فقال تعالى : ﴿ **جزاء** ﴾ أي فعل لهم ذلك لأجل الجزاء ، ﴿ **بما كانوا** ﴾ جبلّة وطبعًا ﴿ **يعملون** ﴾ أي يجددون عمله على جهة الاستمرار(١) اهـ .

قال تعالى : ﴿ **فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقّاهم نضرة وسرورًا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلًا ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قوارير قوارير من فضة قدروها تقديرًا ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلًا عينًا فيها تسمى سلسبيلًا** ﴾ [الإنسان : ١١- ١٨].

قال الزمخشري :

﴿ **ولقّاهم نضرة وسرورًا** ﴾ أي أعطاهم بدل عبوس الفجار وحزنهم نضرة في الوجوه ، وسرورًا في القلوب .

﴿ **بما صبروا** ﴾ بصبرهم على الإيثار .

﴿ **جنة وحريرًا** ﴾ المعنى : وجزاهم بصبرهم على الإيثار ، وما يؤدي إليه من الجوع والعري بستانًا فيه مأكل هنّي ، وحريرًا فيه ملبس بهي ؛ يعني أن هواءها معتدل ، لا حرّ شمس يحمي ، ولا شدة برد تؤذي .

قال البقاعي :

ولما كان فعلهم هذا خالصًا لله ، سبب عنه جزاءهم ، فقال مخبرًا أنه دفع

---

(١) نظم الدرر ( ١٩/٢٠٥ ) .

(٢) الكشاف للزمخشري ( ٤/١٦٩ ) .

عنهم المضار ، وجلب لهم المسار : ﴿ **فوقاهم الله** ﴾ أي الملك الأعظم ، بسبب خوفهم ﴿**شر ذلك اليوم**﴾ أي العظيم، وأشار إلى نعيم الظاهر بقوله: ﴿**ولقاهم**﴾ أي تلقية عظيمة ، فيه وفي غيره ﴿ **نضرة** ﴾ أي حسنًا ونعمة تظهر على وجوههم ، وعيشًا هنيئًا ، وإلى نعيم الباطن بقوله : ﴿ **وسرورًا** ﴾ أي دائمًا في قلوبهم ، في مقابلة خوفهم في الدنيا وعبوس الكفار في الآخرة وخزيهم .

وأشار إلى المسكن بقوله : ﴿ **وجزاهم بما صبروا** ﴾ أي بسبب ما أوجدوه من الصبر على العبادة من لزوم الطاعة ، واجتناب المعصية ، ومنع أنفسهم الطيبات ، وبذل المحبوبات ﴿ **جنة** ﴾ أي بستانًا جامعًا يأكلون منه ما يشتهون ، جزاء على ما كانوا يطمعون ، ولما ذكر ما يكسو الباطن ، ذكر ما يكسو الظاهر فقال : ﴿ **وحريرًا** ﴾ أي هو في غاية العظمة .

وقال : ﴿ **تذليلًا** ﴾ أي سهل تناولها تسهيلًا عظيمًا ، لا يَردُّ اليد عنها بُعْدٌ ولا شوك ، لكل من يريد أخذها على أي حالة كان من اتكاء وغيره ، فإن كانوا قعودًا تدلت إليهم ، وإن كانوا قيامًا وكانت على الأرض ارتقت إليهم ، وهذا جزاء لهم على ما كانوا يذللون أنفسهم لأمر الله .

﴿ **ويطاف** ﴾ أي من أيّ طائف ، لكثرة الخدم .

﴿ **عليهم بآنية** ﴾ جمع إناء ؛ جزاء على طوافهم على المحتاجين بما يصلحهم(١).

قال ابن القيم :

قال تعالى : ﴿ **ويسقون فيها كأسًا كان مزاجها زنجبيلًا عينًا فيها تسمى سلسبيلًا** ﴾ فأخبر سبحانه عن العين التي يشرب بها المقربون صرفًا ، أن شراب الأبرار يمزج منها ؛ لأن أولئك أخلصوا الأعمال كلها لله ، فأخلص شرابهم ، وهؤلاء مزجوا فمزج شرابهم ، ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون تعرف في وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينًا يشرب بها**

---

(١) نظم الدرر ( ٢١/١٤١-١٤٢ ) .

**المقربون ﴾** [المطففين : ٢٢-٢٨] .

فأخبر سبحانه عن مزاج شرابهم بشيئين : بالكافور في أول السورة ، والزنجبيل في آخرها ، فإن في الكافور من البرد وطيب الرائحة ، وفي الزنجبيل من الحرارة وطيب الرائحة ، وما يحدث لهم باجتماع الشَّرابين ، ومجيء أحدهما على أثر الآخر حالة أخرى ، أكمل وأطيب وألذ من كل منهما بانفراده ، ويعدل كيفية كل منهما بكيفية الآخر ، وما ألطف موقع ذكر الكافور في أول السورة ، والزنجبيل في آخرها ، فإن شرابهم مزج أولًا بالكافور ، وفيه من البرد ما يجيء الزنجبيل فيعدله .

والظاهر أن الكأس الثانية غير الأولى ، وأنهما نوعان لذيذان من الشراب ، أحدهما : مزج بكافور . والثاني : مزج بزنجبيل ، وأيضًا فإنه سبحانه أخبر عن مزج شرابهم بالكافور وبرده في مقابلة ما وصفهم به من حرارة الخوف ، والإيثار ، والصبر ، والوفاء بجميع الواجبات التي نبه على وفائهم بأضعفها ، وهو ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر على الوفاء بأعلاها ، وهو ما أوجبه الله عليهم ، ولهذا قال : **﴿ وجزاهم بما صبروا جنة وحريرًا ﴾** فإن في الصبر من الخشونة وحبس النفس عن شهواتها ما اقتضى أن يكون في جزائهم من سعة الجنة ، ونعومة الحرير ما يقابل ذلك الحبس والخشونة ، وجمع لهم بين النضرة والسرور ، وهذا جمال ظواهرهم ، وهذا حال بواطنهم ، كما جملوا في الدنيا ظواهرهم بشرائع الإسلام ، وبواطنهم بحقائق الإيمان ، ونظيره قوله في آخر السورة : **﴿عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة ﴾** [الإنسان : ٢١] فهذه زينة الظاهر ، ثم قال : **﴿ وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا ﴾** فهذه زينة الباطن ، المطهر لهم من كل أذى ونقص .

ونظيره قوله تعالى لأبيهم آدم عليه السلام : **﴿ إن لك ألّا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ﴾** [طه : ١١٨-١١٩] فضمن له ألّا يصيبه ذل الباطن بالجوع ، ولا ذل الظاهر بالعري ، وألا يناله حَرُّ الباطن بالظمأ ، ولا حر الظاهر بالضحى(١).

---

(١) حادي الأرواح ص١٨٤-١٨٥ .

يقول ابن القيم :

وشرابهم من سَلْسَبيل مزجه الـ كافورُ ذاك شرابُ ذي الإحسانِ
هذا شرابُ أولي اليمين ولكن الْـ أبـرارُ شُرْبُهُـمُ شرابٌ ثـانِ
يُدْعى بتسنيمٍ سنامٌ شُرْبُهُـمْ شِرْبُ المقرَّبِ خيرةَ الرحمنِ
صَفَّى المُقربُ سعْيَه فصفا له ذاك الشرابُ فتلك تَصفِيَتانِ
لكنّ أصحاب اليمين فأهل مزْ جٍ بالمباح وليس بالعصيـان
مُزِجَ الشرابُ لهم كما مزجوا هُمُ الْـ أعمالَ ذاك المزج بالميـزانِ[1]

## ولباسهم فيها حرير :

قال رسول الله ﷺ : « إن كنتم تحبون حِلْية الجنة وحريرها ، فلا تلبسوهما في الدنيا »[2].

قال المناوي :

« إن كنتم تحبون حلية الجنة » زينتها ، والمراد حلي الذهب والفضة .

« وحريرها ، فلا تلبسوهما في الدنيا » فإن من لبسهما من الرجال ، ومثلهم الخَنَاثَى في الدنيا لم يلبسهما في الآخرة ، كما في خبر آخر ، ويحرم على الرجل والخُنْثى حلي النقدين ، والحرير لغير ضرورة أو حاجة[3].

## نكاح أهل الجنة :

قال ابن القيم : وأكمل الناس فيه أصونهم لنفسه في هذه الدار عن الحرام ، فكما أن من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة ، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، ومن أكل في صحاف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة ، كما قال النبي ﷺ : « إنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة »

---

(١) النونية لابن قيم الجوزية .

(٢) رواه أحمد ، والنسائي ، والحاكم عن عقبة بن عامر ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٣٣٨ ، وتخريج المشكاة رقم ٤٤٠٤ ، وصحيح الجامع رقم ١٤٥١ .

(٣) فيض القدير ( ٣/٣٥-٣٦ ) .

فمن استوفى طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حرمها هناك . ومن ترك اللذة المحرمة لله استوفاها يوم القيامة أكمل ما تكون ، ومن استوفاها هنا حرمها هناك ، أو نقص كمالها ، فلا يجعل الله لذة من أوضَع في معاصيه ومحارمه كلذة من ترك شهوته لله أبدًا(١).

**أولئك يجزون الغرفة :**

قال تعالى : ﴿ **أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقّون فيها تحية وسلامًا** ﴾ [الفرقان : ٧٥] .

قال ابن القيم : تأمل كيف جعل جزاءَهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله ، الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوءِ خطاب الجاهلين لهم ، فبُدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم(٢).

وقال تعالى : ﴿ **والملائكة يدْخلون عليهم من كل باب سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** ﴾ [الرعد : ٢٣-٢٤] .

قال ابن الجوزي : تعبوا فأريحوا ، وزهدوا فأبيحوا ، زال نَصَبُهم ، وارتفع تعبهم ، وحصل مقصودهم ، ورضي معبودهم(٣).

**سماع أهل الجنة :**

قال رسول الله ﷺ : « إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصوات ، ما سمعها أحد قط ، [ إن مما يغنين : نحن الخيرات الحسان ، أزواج قومٍ كرام ، ينظرن بقرة أعيان . وإن مما يغنين به : نحن الخالدات فلا يَمُتْنَه ، نحن الآمنات فلا يخفنه ، نحن المقيمات فلا يظعنه ] »(٤).

---

(١) حادي الأرواح ص٢٤٠ .

(٢) حادي الأرواح ص١٤٢ .

(٣) التبصرة ( ٢/٢١٤-٢١٥ ) .

(٤) رواه الطبراني في الأوسط عن ابن عمر ، وأبو نعيم ، والضياء في صفة الجنة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٥٥٧ ، والروض النضير ٤٩٦ .

وفي الصحيح من فوائد سمويه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الحور العين لتغنين في الجنة ويقلن: نحن الحور الحسان، خُبِّئْنا لأزواج كرام ».

قال المناوي:

إن أزواج أهل الجنة زاد في رواية: « من الحور ».

« ليغنين أزواجهن بأحسن أصواتٍ، ما سمعها أحد قط » أي بأصوات حسان، ما سَمع في الدنيا مثلها أحد قط[1].

فمن أراد سماع الحور فلينزهِ سمعه عن غناء أهل الفجور، جزاءً وفاقًا.

يقول ابن القيم رحمه الله:

| | |
|---|---|
| قال ابنُ عباسٍ ويُرْسلُ ربنا | ريحًا تهزُّ ذوائبَ الأغصانِ |
| فتُثير أصواتًا تَلَذ لِمسمع الْـ | إنسانِ كالنَّغماتِ بالأوزانِ |
| يالذةَ الأسماع لا تتعوضي | بلذاذةِ الأوتار والعيدانِ |
| أوَمَا سمعت سماعهم فيها غنا | ءالحور بالأصوات والألحانِ |
| وَاهًا لذيّاك السماعِ فإنه | مُلئت به الأذنان بالإحسانِ |
| وَاها لذيّاك السماعِ وطيبه | من مثل أقمارٍ على أغصانِ |
| وَاها لذيّاك السماعِ فكم به | للقلب من طربٍ ومن أشجانِ |
| وَاها لذيّاك السماعِ ولم أقل | ذيّاك تصغيرًا له بلسانِ |
| ما ظن سامعه بصوتٍ أطيب الْـ | أصوات من حور الجنان حسانِ |
| نحن النواعم والخوالد خيِّرا | تٌ كاملات الحسن والإحسانِ |
| لسنا نموت ولا نخاف وما لنا | سخطٌ ولا ضِغْنٌ من الأضغانِ |
| طوبى لمنْ كُنَّا له وكذاك طو | بى للذي هو حظنا لفظانِ |
| في ذاك آثار رُوين وذكرها | في الترمذي ومعجم الطبراني |
| ورواه يحيى شيخ الأوزاعيّ تفـ | ـسيرًا للفظة يُحْبرون أغانِ |

(١) فيض القدير ( ٤٢٣/٢ ).

نزِّه سماعَك إن أردت سماع ذيَّـــــاك الغنا عن هذه الألحانِ
لا تؤثر الأدنى على الأعلى فَتُحْـــرم ذا وذا ياذِلَّةَ الحرمانِ[1]

قال تعالى : ﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون هل ثُوِّب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ [المطففين : ٣٤-٣٦].

قال ابن كثير :

﴿ **فاليوم** ﴾ يعني يوم القيامة .

﴿ **الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ أي في مقابلة ما ضحك بهم أولئك .

﴿ **على الأرائك ينظرون** ﴾ أي إلى الله عز وجل ، في مقابلة من زعم فيهم أنهم ضالون ، وليسوا بضالين ، بل هم من أولياء الله المقربين ، ينظرون إلى ربهم في دار كرامته .

وقوله تعالى : ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ أي هل جوزي الكفار على ما كانوا يقابلون به المؤمنين من الاستهزاء والتنقيص أم لا ؟! .

يعني قد جُوزوا أوفر الجزاء وأتمه وأكمله[2] .

قال القرطبي :

﴿ **من الكفار يضحكون** ﴾ كما ضحك الكفار منهم في الدنيا[3].

قال ابن جرير :

﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ يقول تعالى ذكره : هل أُثيب الكفار ، وجُزُوا ثواب ما كانوا في الدنيا يفعلون بالمؤمنين ، من سخريتهم منهم ، وضحكهم بهم ، بضحك المؤمنين منهم في الآخرة ، والمؤمنون على الأرائك ينظرون ، وهم في النار يعذبون[4].

---

(١) النونية لابن القيم .
(٢) تفسير ابن كثير ( ٤/٤٧٢ ) .
(٣) تفسير القرطبي ( ١٠/٧٠٥٩ ) .
(٤) الطبري ( ١٢/١١٢ ) .

قال محمد الطاهر عاشور :

وأفادت فاء السببية في قوله : ﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ أن استهزاءهم بالمؤمنين في الدنيا كان سببًا في جزائهم بما هو عليه من نوعه في الآخرة ، إذ جعل الله الذين آمنوا يضحكون من المشركين ، فكان جزاءً وفاقًا[١].

قال سيد قطب :

﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ . والقرآن يتوجه بالسخرية العالية مرة أخرى وهو يسأل : ﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ ؟ .

أجل ! هل ثوبوا ؟ هل وجدوا ثواب ما فعلوا ؟ وهم لم يجدوا الثواب المعروف من الكلمة ، فنحن نشهدهم اللحظة في الجحيم ! ولكنهم من غير شك لاقوا جزاء ما فعلوا ، فهو ثوابهم إذن . ويا للسخرية الكامنة في كلمة الثواب في هذا المقام[٢].

قال القاضي أبو السعود :

﴿ **يضحكون** ﴾ وتقديم الجار والمجرور تحقيقًا للقصر والمقابلة ؛ أي فاليوم هم من الكفار يضحكون ، لا الكفار منهم ، كما كانوا يفعلون في الدنيا .

﴿ **هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون** ﴾ فإنه صريح في أن ضحك المؤمنين منهم جزاء لضحكهم منهم في الدنيا ، فلابد من المجانسة والمشاكلة حتمًا ، والتثويب والإثابة والمجازاة[٣].

قال البقاعي :

﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾ .

---

(١) التحرير والتنوير ( ٣٠/٢١٤ ) .

(٢) الظلال ( ٦/٣٨٦١ ) .

(٣) تفسير أبي السعود ( ٩/١٣٠ ) .

﴿ يضحكون ﴾ قصاصًا وجزاء ، حين يرون ما هم فيه من الذل ، سرورًا بحالهم ، شكرًا لله على ما أعطاهم من النجاة من النار والنقمة من أعدائهم . قال أبو صالح : تفتح لهم الأبواب ، ويقال : اخرجوا ، فيسرعون ، فإذا وصلوا إلى الأبواب غلقت في وجوههم ، وردوا على أقبح حال ، فيضحك المؤمنون . ويالها من خيبة وخجلة ، وسواد وجه ، وتعب قلب ، وتقريع نفس من العذاب بالنار ، وبالشماتة والعار .

﴿ هل ثُوب ﴾ بناه للمفعول لأن المللذ مطلق مجازاتهم .

﴿ الكفار ﴾ أي وقع تثويب العريقين في الكفر ؛ أي إعطاؤهم الثواب والجزاء على أنهى ما يكون .

﴿ ما كانوا ﴾ أي نفس فعلهم بما هو لهم كالجبلات .

﴿ يفعلون ﴾ بدواعيهم الفاسدة ، ورغباتهم المعلولة .

وقد علم أن لهم الويل ، الذي افتتحت السورة بالتهديد لمن يفعل فعل من لا يظن أنه يجازى على فعله ، وآخرها فيمن انتقص الأعراض في خفاء ، وأولها فيمن انتقص الأموال كذلك ، وجفاء العدل والوفاء ، والله الهادي للصواب ، وإليه المرجع والمآب(١).

يقول ابن القيم :

ضحكوا من الكفار يومئذٍ كما ... ضحكوا هُمُ منهم على الإيمانِ
وأثابهم نظرًا إليه ضِدَّ ما ... قد قَالَهُ فيهِمْ أولو الكفرانِ
فلذاك فسَّرها الأئمة أنـه ... نظر إلى الرب العظيمِ الشَّانِ
للَّهِ ذاك الفهمُ يؤتيه الذي ... هو أهله مَنْ جادَ بالإحسانِ
والله لولا رؤية الرحمن في الـ ... ـجنات ما طابت لذي العرفانِ
أعلى النعيمِ نعيمُ رؤية وجهه ... وخطابه في جنة الحيـوانِ
وأشدُّ شيء في العذاب حجابه ... سبحانه عن ساكني النيران

---

(١) نظم الدرر ( ٢١/٣٣٣-٣٣٤ ) .

وإذا رآه المؤمنون نَسُوا الذي هم فيه مما نالتِ العَيْنانِ
فإذا توارى عنهمُ عادوا إلى لذاتهم من سائرِ الألوان
فلهم نعيمٌ عند رؤيتهِ سوى هذا النعيم فحبَّذا الأمرانِ
أوَما سمعت سؤالَ أعرفِ خلقه بجلالة المبعوثِ بالقرآنِ
شوقًا إليه ولذة النظر التي بجلال وجه الرب ذي السلطانِ
فالشوقُ لذةُ روحه في هذه الدُّنيا ويوم قيامةِ الأبدانِ
تلتذ بالنظر الذي فازت به دون الجوارحِ هذه العينانِ
والله ما في هذه الدنيا ألـذُّ من اشتياق العبد للرحمنِ
وكذاك رؤية وجهه سبحانه هي أكمل اللذات للإنسانِ(١).

اللهم إنا نسألك لذة العيش بعد الموت ، وحسن النظر إلى وجهك الكريم ، والشوق إلى لقائك .

* * *

---

(١) النونية لابن القيم .